أسئلة الهوية والتجديد والاندماج القومي في السودان *

أ.د. حسن مكي محمد أحمد**

تتناول هذه الورقة البحثية مسألة الهوية والتجديد, وقضايا الإندماج القومي في السودان, وتتبعت قضية الهوية السودانية عبر الحقب التاريخية المختلفة التي مر بها السودان بداية باتفاقية البقط وتقبل النوبة للإسلام ومرورا بالدولة السنارية والنخب التركية العلمانية المتمصرة ثم المشروع المهدي والإدارة الإنجليزية في إطار الحكم الثنائي . كما تناول البحث مسألة الهوية السودانية في إطار توظيف الدين في السياسة, والتدخل الدولي في محرقتي الجنوب ودارفور وعكست أيضا التمدن وما أفرزه على الهوية السودانية .

This paper is an attempt to investigate the issue of identity, revival (renewal) and national coherence in the Sudan. It traced the issue of Sudanese identity through the different eras, starting from the Bakt agreement, the acceptance of Islam by the Nubians, the Sinnar State, the rule of the Egyptianized Turkish elites, the Mahdist state, and the British rule. The article Also reflected the issue of identity within the framework of employing religion in politics, and the international intervention in the case of the war in Darfur and Southern Sudan. It also tackled the impact of modernization on the Sudanese Identity.

تقديم

السودان بلد مترامي الأطراف، متعدد الأعراق والجنسيات ، فهو إمبراطورية من حيث الأجناس والأعراق واللغات، ولكنه ظل إمبراطورية تفتقر للبنية التحتية إلى وقت قريب،

* ورقة قدمت في منتدى مركز التنوير المعرفي-الخرطوم- المنعقد بدار المركز يوم الأربعاء 2009/3/18م

** مدير جامعة إفريقيا العالمية

حيث كانت المواصلات تقوم على الدواب والمراكب النيلية البدائية ثم السكك الحديدية والنقل النهري إلى عهد حكومة الاستقلال.

تشكلت دولة السودان الحديثة ، من ثلاثة كيانات ، كان لكل كيان شخصيته وتاريخه وتكوينه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الخاص، فهناك سلطنة الفونج التي برزت في حدود عام1504م ، وعاشت لمدة ثلاثمائة عام 1504/ 1821م وتمثلت عاصمتها السياسية والاقتصادية والإدارية في سنار، بينما حمل ملوك العبدلات في قري أعباء حركة الفكر والدعوة والثقافة ، كما قامت سلطنة الفور في دارفور ما بعد 1600 إلى 1874م، كما ظلت قبائل جنوب السودان في شبه استقلال ذاتي حتى عام 1839م .

م تّ دمج هذه الكيانات الثلاث ، في كيان واحد ، أطلق عليه اسم السودان المصري في عهد الخديوي إسماعيل باشا بعد دمج دارفور في عام 1874م ، وبذلك برزت الدولة السودانية قبل بروز الأمة أو الهوية الموحدة ، كما أن هذا الدمج ظل شكليا وصوريا نسبة لعدم استمرارية التجربة وانقطاعها بالحروب في فترة المهدية، ثم انفصال دارفور حتى عام 1916م ، ثم قوانين المناطق المقفولة حتى 1948م ، ثم انعدام البنية الاتصالية والتواصلية واللغة المشتركة . والهوية ليست وليدة لحظة تاريخية معينة ، وا نما تتشكل في ظل الضرورة التاريخية وببطء، وأن تراكم الخبرات والتجارب على مصفاة العقل الجمعي للجماعة ، يؤدي إلى نضج خياراتها وميولها ونسقها القيمي والأخلاقي فيما يسمى بالهوية. ولذلك فإن الهوية ليست جامدة ولكنها متجددة . ولكنها كذلك ليست مستحدثة أو مصنوعة، بمعنى أنه لا يمكن صناعتها بين يوم وليلة نتيجة لبرنامج سياسي أو دعاية حزبية أو أطماع حاكم .

و الهوية السودانية ، هبة التجارب والخبرات السودانية المحلية في تلاقحها مع الوافد الخارجي سواء أكان فرعونيا أو دينيا أو دنيويا ، وأن سودان وأدي النيل الوسيط تواصل مع الوافد الخارجي منذ خمسة آلاف سنة ، وعرف الحرف الهروغلوفي واليوناني والروماني والقبطي والجعزي ،ثم ارتكز إلى ذاته وأنتجحرفة الخاص ، الحر ف المروي . الذي عبّ ر فيه عن تاريخه وذاكرته وخبراته وفنونه ، ولكن وللأسف حدثت قطيعة غير مبررة مع هذا الحرف ، حينما اندثر وتلاشى حتى عاد لغزا وطلسما، علما بأن العقل

السوداني الذي استغنى بالحرف القرآني عن الحرف المروي لا يزال على تواصل مع الحرف اللاتيني ، إذاً ماذا كان يضيره لو صبر على الحرف المروي ومضى في تواصله معه؟. ولكن ضاع الحرف المروي مع تدمير سوبا، والمنجزات التاريخية الأخرى نتيجة لغارات البدو والأعاريب على المدينة السودانية، لأن "الأعراب أشد كفرا ونفاقا" ، ولم يكونوا على دراية بمطلوبات الحضارة والتحديث، ولم يكونوا كما قال ابن خلدون على شيء من الخطط السلطانية ، حتى يضيفوا ويبنوا على حركة التمدن والعمران السوداني ، ولذلك وجب التفريق بين حركة الدعاة ورجال الفكر والدعوة في تشكل الهوية السودانية ، والهجرات البدوية التي جاءت طلبا للمرعى والمعدن أو لاسترقاق الآخر وقهره والاستحواذ على ثرواته . ولعل هذا التخليط في فهم الوقائع التاريخية هو الذي يؤدي للتشويش والخلط في قراءة وضعية الهوية في الصيرورة السودانية .

الهوية السودانية واتفاقية البقط :

اختلف استقبال النوبة ، أهل حضارة السودان القديمة للجيش الإسلامي الذي رحب به أهل مصر في 19 هجرية 641م، لأنهم نظروا إليه كجيش محرر من سلطان الرومان، ومحرر للكنيسة المصرية القبطية من جور الكنيسة العالمية . ولكن اختلف الأمر، حيث النوبة الحرة لاتريد سيدا ولا تقبل بالوافد الخارجي تحت أي عنوان، ودخل رماة الحدق – أي النوبة – في حروب ومناوشات امتدت لعشر سنوات ، انتهى لسان حال الجيش الإسلامي إلى مراجعات في استراتيجيتهم نحو النوبة لأن سلبهم قليل وبأسهم شديد ،وأن النوبة الحرة لايمكن النفاذ إليها إلا بالوسائل الحرة من الحوار، وتقديم الدعوة والوصول إليها بالوسائل السياسية والدبلوماسية والتجارية . وجاء ذلك نتيجة مفاوضات مضنية انتهت إلى عهد البقط في 31 هـ - 651م ، والذي كان أهم فقراته، أن يدخل المسلمون بلاد النوبة مجتازين غير مقيمين ،وأن يتعهد النوبة بحماية المسجد الذي بناه المسلمون ونظافته وسرجه .

تقبل النوبة للإسلام بالرسائل المتحركة والتواصل الخلاق لا بالمتون الساكنة :

كانت نخبة النوبة على الطبعة القبطية من المسيحية، وكانت حياة النوبة الاقتصادية عمادها الزراعة على النيل ،ومورثاتهم الاجتماعية تقوم علي تقديس الملك فهو

راعي الكنيسة والدولة والمجتمع ، وله السلطان على الأرض والشعب . ولما دخل المسلمون للتجارة ، علموا النوبة أن سلطان الملوك على الدولة مقبول ولكن ملكيتهم للأرض مرفوضة وأن الأرض لمن يفلحها ، وأن الارض لله يورثها من يشاء من عباده، و انتقل الصراع إلى داخل العقل النوبي، وعن طريق لمن الأرض؟ وتحرير الأرض من قبضة الملك ، وتحرير النوبة لذواتهم من ربقة العبودية للملك ، إلى عبودية الواحد القهار ، التي تأبى عبودية الرجال للرجال ، دخل النوبة في الإسلام وعلى مراحل وبعد سبعمائة سنة متوالية من الرسائل المتحركة والتفاعل السلمي والتواصل الخلاق تقبل النوبة الثقافة الإسلامية وبثورة داخلية وقع الانقلاب الإسلامي الأول في دنقلة . وأصبح عبدالله برشمبو النوبي المسلم ملكاً على دولة دنقلة ، ولكن اختلف الأمر في سوبا عاصمة المملكة النوبية الأخر ى علوة ، لأن القبائل العربية البدوية التي اندفعت لسهول السودان، محمولة بطلب السلب والمرعى بدلا من أن تحافظ على ذات الدفع والنهج الذي أدى لتقبل النوبة العليا للإسلام ، إذ هي تلجأ لوسائل الغلبة والسطوة والاستئصال فيما عرف بخراب سوبا ، مما أدى لانقطاع في مسيرة الحضارة السودانية، حيث أصبح لرعاة الإبل القوامة على بناة الاهرامات ،ومخترعي الحرف المروي، وبناة المدن الملكية التي ما تزال تدهش المهتمين بالحضارة والتمدن والتاريخ بحسن ترتيبها وجمالها.

أدى اختفاء مملكة علوة إلى فراغ سلطوي ، ما لبث ان ملأه حكيم من حكماء القبائل العربية من عرب القواسمة اسمه عبدالله جماع ، سمي بجماع لأنه جمع القبائل العربية على ميثاق لم يصل إلينا ، ونهاهم فيه عن الحرب والسلب والفوضى. ووضعهم أمام مسئوليات ملء الفراغ وا إقامة الدولة ، بالتحالف مع طرف آخر ، ربما كانوا طرفاً من أطراف ملوك علوة المهزومين ، والذين تراجعوا إلى أطراف الحبشة ، وتقووا بقبائل السودان في ذلك الجزء وتسموا بالفونج . وقامت الدولة الجديدة تحت سلطان الفونج كشوكة للملك والنخبة العربية العبدلاب أي مناصري عبدالله – لأن آب صيغة الجمع عند النوبة ، كما تقول هلالاب أو مريخاب والأصل هلاليون أو مريخيون – ونجح العبدلاب والفونج في دمج النوبة في شوكتهم ، بالتغريب والترهيب .

الهوية السودانية بين الرسائل المتحركة والتفاعل الخلاق

إلى المصحف المخطوط والدواة واللوح

المقصود بالرسائل المتحركة ، الدعاة الجوالة ، الذين دخلوا السودان أو برزوا ولم يك لهم من الأدوات إلا الإرادة، و اللسان .لأن السودان لم يعرف المدار س وأدوات المدنية ولا تدريب المدرسين والدعاة. وقام بكل عبء وجهود الإصلاح طائفة الدعاة والفقهاء المتطوعون الذين نذروا أنفسهم لملحمة الدعوة والإصلاح بدون مرتبات أو وضع رسمي أو دفع سلطاني. ولكن أخذ الوضع يتحسن في ظل الإدارة المشتركة للفونج والعبدلاب ، وكذلك في ظل إدارات سلطنات الفور وتقلي والمسبعات ، أخذت الهوية السودانية في التشكل في إطار الثقافة الإسلامية ، باتخاذ الأسماء ذ ات الدلالات القرآنية والعربية ، مع صرخة الميلاد. والدفن على إيحاءات ورمزيات إسلامية. والزواج في إطار الطقوس القديمة، ولكن علي أساس المشروعية الدينية، وأصبح الحلال والحرام مرجعية في الأكل والشرب، في إطار التخليط مع الخمور البلدية والطقوس وارد الثقافة السودانية في صيرورتها التاريخية، ولم تك هناك مقومات مادية كافية لمطلوبات الهوية السودانية ، لأن البيئة المتقشفة وسط العامة ، لم يك في إمكانها رفع العامة ،رجالا ونساء، إلى مطلوبات ستر العورة . حيث ظل الرحط النسائي والثوب الرجالى – الملفح – الذي لايستر تماما اللباس السائد . ومع التراكم التاريخي لجيل الدعاة – ابتداء من غلام الله بن عائد، الذي علم علوم القرآن في القرن الخامس عشر الميلادي ، بدأت حركة التعليم والكتابة ، تأخذ مسارا شعبيا محدودا بدلا من إطارها النخبي ، ثم مالبث أن انتشرت مدارس القرآن القائمة على الاستظهار والتحفيظ وكان أداتها اللوح والدواة و أصبح الكثيرون يتوقون إلى الارتقاء والعيش وفق مطلوبات الثقافة الإسلامية ، بينما كانت الثقافة الشعبية ما تزال متجذرة في هوية التخليط نتيجة للفقر والأمية والمرض ، وكان العقل السوداني تتجاذبه أشواق التمسك – لتنزيل التنزيل في ظروف و أجواء الدجل والشعوذة والتخليط في الدواء والشفاء . ومع ذلك لم يتوقف الإصلاح ،وا ن كان محدودا . ولكن فاعليته تزداد بالتراكم ، و بتعليم القرآن للصبيان، وبروز ما يشبه المحاكم الشرعية، وهجرة عدد من العلماء نتيجة لسقوط الأندلس. وتسامع العالم الإسلامي ببروز دولة عربية إسلامية في ديار الفونج والعبدلاب . ثم دخلت الهوية السودانية المختلطة ، في رحاب التصوف ، مع بروز حركة التصوف المؤسسي ،

مع القادرية والشاذلية والمجاذيب والتجانية وجهود الشيخ أحمد الطيب البشير السماني ، والميرغني الكبير وأصبح الإيقاع الديني الصوفي المنحى، الأوسع انتشارا وقبولا ،بطبوله ورمزياته ومزاراته في المجتمع السوداني ، ويمكن القول بأن سبعمائة السنة الأولى ، أي من اتفاقية البقط إلى بروز أول حاكم مسلم في دنقلة ، هي مرحلة الدفع الذاتي والتمدد التلقائي التدريجي للرحم السوداني الحامل بالهوية الإسلامية. و أربعمائة السنة التي تلتها اي 1400م / 1800م – هي مرحلة الولادة من رحم وضرع مختلطين في إطار دفع سلطاني إسلامي لخدمة مطلوبات الدفع المجتمعي لتبلور هوية إسلامية / عربية .

تشكل الهوية السودانية في إطار دولة النخبة التركية العلمانية المتمصرة :

دخلت الهوية السودانية في امتحان جديد مع مشروع الوالي محمد علي ، ومثل مشروع محمد علي امتحانا للخلافة الإسلامية المتهاوية في تركيا ، و امتحانا للعقل المصري والأزهر الذي كان يتوق للتجديد والإصلاح ، كما مثل امتحانا للهوية السودانية التي كانت في درجة من درجات التقبل للإسلام والانعتاق من التخلف، كما مثل تعقيدا جديدا في انطلاق مشروع السودان الدولة والهوية .

وإشكالية الوالي محمد علي مؤسس مشرو ع مصر الحديثة ، أنه لم يك مصريا ، ينتمي بجذوره إلى القرية المصرية ، ولم يك كذلك منتميا للنخبة المصرية الحاكمة قبل نابليون والتي لم تك جذورها مصرية ولكنها تمصرت لسانا وهوية .

لم تك إشكالية محمد علي تقوم فقط على عدم إلمامه باللغة العربية ،ولكنه كان يعاني كذلك من انعدام شوكة اجتماعية مصرية يستند عليها ، ولذلك صانع الفرنسيين كما صانع أحفاده الإنجليز ، كما أصبح أحد بناة المحفل المأسوني المصري ، وبنى في مصر 34محفلا مأسونيا و أكرمه الماسون ببناء محفل يحمل اسمه ، ومع ذلك عنى مشروع محمد علي الكثير بالنسبة للهوية السودانية التي كانت تبحث عن المقو ّ م المادي. بعد أن استقر المقو ّ م الروحي وتمثل ذلك في الانفتاح والتواصل مع مصر الدولة، والاستفادة من منجزات المدنية المحروم منها السودان . ولكن إصلاح وتحديث الوالي محمد علي في السودان ، كان يتغذى من ضرع مسموم يصب في رحم الهوية السودانية المختلط ، لأن محمد علي لم يأت حاملا لمشروع نهضة للسودان وا إنما أتى طالبا للمال والرجال ، أو قل

ثروات السودان وموارده ، في ظل إدارات لم تعرف إلا الكرباج لمن يتهرب من الضرائب، أو الاسترقاق لغير القادر على مطلوبات الجزية ولكن ومع ذلك أخذت الهوية السودانية تتشكل في إطار وحدة سياسية ، جمعت في أواخر حقبة أحفاد محمد علي في السودان الممتدة لستين سنة (1820- 1880) بروز السودان ككيان سياسي. جمع مابين ديار الفونج وقبائل جنوب السودان وسلطنة دارفور وكردفان ، وقبل أن تنصهر هذه المكونات في إطار دولة سودانية أو كيان موحد ، دخل هذا الكيان الإسمي أو الشكلي الوليد في مأزومية ، حيث كان عمر دارفور مثلا في إطار سودان محمد علي وأحفاده ست سنوات حينما ولد المشروع المهدي في عام 1880م ، وقام المشروع المهدي على مفردة واحدة من مفردات السودان السناري أو سودان الفونج و هي مفردة المهدية ، من ضمن مكونات صوفية واجتماعية وثقافية في الكيان السناريوطغت مفردة المهدية لأن كثيراً من مكونات الفكر السناري ، من أهازيج ومدائح وأناشيد وطبول كانت تتغنى وتمجد وتتشوق للغوث أو القطب أو سيد الوجود أو الختم. وكلها من مشتقات ومسميات المهدي. الذي يملأ الأرض عدلا ويبدل الظلم الذي أخذ يستقي منه الرحم السوداني ممثلا في الكرباج والضرائب والرق والتبشير المسيحي الذي دخل من بوابة حكم النخبة التركية المتمصرة .

الهوية السودانية وامتحان المشروع المهدي :

تمثلت إشكالية المشروع المهدوي ، الذي قام علىر اية التجديد الإسلامي ونصرة الدين، أن المشروع خلط مابين توق السودانيين للتخلص من الكرباج ،والرق، ومؤسسات التبشير المسيحي، وقدرة السودانيين على تحمل أعباء مشروع تجديد،وإ حياء إسلامي تنعدم مقوماته الروحية والعقلية في البيئة السودانية التي يسودها التخليط والجهل والأمية . بل إن أكثر من ثلثي سكان السودان كان في منزلة ما بين الوثنية والإسلام . وازداد تعقد هذه الإشكالية، نسبة للخصومة والعداوة ما بين علماء السودان الذين كانوا على درجة من التنوير في السودان النيلي ومناصري المشروع المهدي الذين لم يك لهم من الدين سو ى الحماسة والبيعة والنية – وكانوا عراة تماما من أي مشروع تجديديوا حيائي،سو ى نصرة الدين بالقتال. وحتى منشورات المهدي لم تك تحمل إلا اللا معقول في الفكر الإسلامي من الحضرة النبوية والتعبئة الدينية للخلاص من الظلم والكفر لنصرة الدين، دون استحضار

لمقومات مادية أو معنوية لهذا المشروع .وحينما وقع عبء المشروع المهدي على خليفته الخليفة عبدالله ضاع المشروع وسط ضغط المؤامرات الخارجية والحروب الأهلية وفوضى التجاذب السكاني وسفك الدماء .

نجح المشروع المهدي في التحريض والثورة والإمساك بالشأن العام، ولكنه حينما أمسك بالسلطة أو الشأن العام لم يك يملك مشروعا ،سوى رد الاعتبار لمفردة جزئية من مفردات الهوية السنارية ممثلة في المهدية ومحمولاتها وراتب المهدي والاستحضار العميق للشهادة ومطلوبات نصرة الدين ، لذا كان من الطبيعي أن يتوق السودانيون للخلاص على مشروع يحمل المقومات المادية للحياة والحداثة والتجديد ، لذا لاعجب أن سقطت الراية المهدية في كرري ودخل الكيان السوداني والهوية السودانية في امتحان الحكم الثنائي .

الهوية السودانية والإدارة الإنجليزية في إطار الحكم الثنائي :

أكسب المشروع المهدي ، قطاعا كبيرا من السودانيين ، حصانة ضد المفاسد الاجتماعية والروحية ، كالبغاء والخمور،كما قوى مناعتهم الروحية بالعبادات ونصرة الدين بالجهاد والذكر وتلاوة القرآن وأداء الصلوات وترتيل راتب المهدي ، إلا أن المشروع المهدي افتقر للمقوم المادي الذي تقوم عليه الحصانة والممانعة ، فالبطون الجائعة لاتعرف المعاني العالية . وثلاثية الجوع والجهل والظلم تمثل ضرعا مسموما تهد كل المقومات المعنوية للهوية.

نجحت الإدارة الإنجليزية ، التي حكمت السودان ، بإيجاد مقومات مادية لمشروعها القائم على نهضة تقوم على ثنائيات التعليم في الجيش والإدارة والقضاء واللغة والمعاهدات. وقسمت هذه الثنائيات الناعمة الهوية السودانية إلى منطلقين ، هوية جديدة مشبعة بروح الولاء لمشروع النهضة العلماني ، يخرج رجال دولة ومواطنين من الدرجة الأولى، يقوم على بسط الأمن والسلام والعدالة ، يرتكز على اللغة الانجليزية في كلية غردون والمدرسة العسكرية والمدارس الجديدة ومافيها من أساليب حداثة وضبط وربط ، ومجتمع قديم يتعاطى مع الخلوة والمعهد العلمي .

يتبوأ خريجو المدارس الحديثة مناصب الدولة والإدارة، بينما يتجه خريجو الخلاوي والمعاهد إلى هامش الدولة والمجتمع ، و أصبح لطبقة الافندية أحياؤهم وأسواقهم وأنديتهم

وخمورهم الإفرنجية ، ولأهل الهامش نزلهم الشعبية وجوارها من خمارات شعبية (اندايات) و أسواق ، وفازت المحاكم المدنية التي تحكم بالقانون الإنجليزي الهندي بالسلطة والثروة وتضاءلت منكمشة على استحياء بجوارها المحاكم الشرعية و شمخت الكنائس بإرسالياتها ومدارسها وحدائقها ومواقعها وسط مقامات الدولة وانزوت المساجد بمشائخها و أبنيتها القديمة ومرتادياها من الغبش إلى الهامش – وبرز العسكري الجديد بحذائه اللامع وجواربه و أحزمته وأربطته ونياشينه وسلاحه الناري وسط مجتمع سلاحه العكاز والسكين أما زيه فحدث ولاحرج .

وفي مجال الري ، برزت مشاريع السلطة الاستعمارية ، بآلاتها وروافعها للماء ، مما مكن من قيام مشروع الجزيرة ،ومشاريع الزراعة الآلية بالشمالية في مقابل مزارعي السلوكة والسواقي محدودة العائد – وفي ظل هذه الثنائيات ذاق المواطن العدالة ، صحيح أنه مواطن من الدرجة الثانية ، ولكن له الحق في التقاضي، ورد حقه، وليس هناك ضرائب عشوائية ،أو سخرة كما كان في العهد التركي ، أو حتى المهدية التي كانت تجبره على التدين حسب مفهومها ورؤيتها – فالدنيا حرية وليست مهدية – بمعنى رفع القيود الصارمة سواء كانت متدثرة بمنطق اجتماعي أو اقتصادي أو حتى ديني .

وشيئا فشيئا ، برزت المرأة الجديدة النظيفة ، التي ذاقت طعم التعليم المدني، وخرجت من ظلمات الجهل والشعوذة والزار والضريح والخفاض ودق الشفاه والشلوخ والولادة بالحبل وبيت الطاعة وزواج الأكراه ،إلى دنيا التنوير والشراكة الاجتماعية – وعنىذلك للإدار ة الاستعمارية بروز السودان الجديد، والنهضة الجديدة على قوالب المدنية الغربية، وأن النموذج الذي تم وضع أسسه بالحديد والنار أصبح نموذجا ناعما يعمل بقوانينه الذاتية وفق التعاطي مع ثنائيات علماني وديني ، مدني وشرعي ، حداثي وتقليدي ، عصري وظلامي ، و أصبحت معركة الهوية معركة ثنائيات، وليس فيها مجال لطريق ثالث . فحتى حينما أهدى رمز المهدية الجديدة سيف المهدي للملك جورج السادس ، مهنئا أياه بانتصار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ، رد إليه السيف طالبا منه أن يستخدمه لحماية الإمبراطورية –وكان هذا كلام رمزيات ، وا ِلا فأين قوة السيف من مشروع الطائرة القاذفة والبارجة والمدفع الماكسيم، و أصبح سيف المهدي في خدمة المهدية الجديدة المندمجة

اقتصاديا واجتماعيا في مشروع النهضة الجديدة والمصانعة سياسيا . ومع رفع علم الاستقلال كان الأحساس أن معركة الهوية قد تم كسبها لمشروع العلمنة والحداثة ممثلا في النخبة الجديدة والمهدية الجديدة. ولكن من قلب النخبة الجديدة والمهدية الجديدة برز الطريق الثالث ، ومن قلب المشروع الاستعماري برز مشروع إصلاح وتجديد إسلامي أخذ يتلمس طريقه ببدايات متواضعة ولكنها مثلت بذورا حاسمة لمشروع يقوم على المقومات المعنوية للهوية الإسلامية. ويتسلح بذات المقومات المادية لمشروع الإدارة الاستعمارية ، متخذا ذات لهجة الثنائيات ، فهناك دستور علماني، ودستور إسلامي، وقانون مدني، علماني ، وقانون مدني إسلامي ، ومصرف ربوي ، ومصرف إسلامي، وحزب علماني ، وحزب إسلامي ، بمثل ما هناك علم نصراني تنزل،و ارتفع مكانه علم سوداني مع الإستقلال .مع السعي لإعادة الاعتبار للثقافة العربية / الإسلامية

الهوية السودانية والهوية المضادة :

قبل أن تشخّص النخبة السودانية الجديدة وليدة البيئة السودانية وثقافة العصرنة والحداثة أوضاعها و أوضاع الحالة السودانية . وقبل ولادة أي مشروع لرد الاعتبار للثقافة العربية / الإسلامية ، انفجر أول ألغام المسألة السودانية باسم الهوية الجنوبية ، ممثلا في ثورة توريت التي مثلت احتجاجا على رفع علم الاستقلال، واحتجاجا على الشمال، واحتجاجا على إنجازات السودنة التي لم تعط الجنوب شيئا ، وكانت الثورة الجنوبية تحس بأن المشروع الاستعماري أقرب لها من المشروع الوطني ، وعبر التمرد المسلح في توريت بقتله للمدنيين والأطفال من الشمال ، عن رمزية كراهية الشمال والسعي للتخلص منه ومن هويته .

ومثل تمرد 1955م أول نكوص عن لاهوت المواطنة ، الذي قام على مرجعية استعمارية، تم يتأطّ ها في ستين سنة ، ورفضا لوحدة الانتماء القائمة على المواطنة وتنصلا من مسئولية حفظ الجماعة الوطنية في الظرف الانتقالي، ورفضا لإعلاء الجانب الوطني ، كما مثل التمرد ردة عن مجابهة المخاطر المشتركة، التي تجابه الجماعة الوطنية ،من زنج وعرب ونوبة مسلمين ومسيحيين ولا دينيين . ولم يك تمرد 1955م مبررا ، لأن علم الاستقلال لم يرفع ، ولأن البلاد كانت تسير على ذات الموازين التي خلفها

للاستعمار من ثنائيات وأوضاع ثقافية وسياسية ، ولو أنّ هذا التمرد وقع قبل عام من المرحلة الانتقالية ، لكان مفهوما ولكان نموذجا لمجابهة العدوان الاستعماري ، وخطوة في مشروع الجماعة الوطنية ، لتأسيس الكيان الجديد ، أو السودان الجديد ، ولكن وقوع التمرد في إطار ولادة الجماعة الوطنية وصرخة الميلاد عنىأنّ عقل التمرد كان يتغذى من ضرع مسموم ، مما يؤدي إلى رحم ملتهب وجنين مشوه .

الممانعة الثقافية والروحية والمادية بقاعدة تعرف الأشياء بأضادها :

لم تك قيادة الجماعة الوطنية ، تملك مشروعا يحمل المقومات المعنوية للهوية ولا المقومات المادية لها . وارتفعت رايات ضد منطق الثنائية ، ممثلة في شعارات الإسلام دين ودولة ، ورد الاعتبار للغة العربية ، وتوحيد المحاكم المدنية والشرعية، والمطالبة بسحب الترخيص للدعارة والخمارات والخمور . واستهلك الخطاب في ذلك الطاقات ، وكان بعض ذلك الخطاب، من جنس الخطاب الذي يشخّ ص الأزمات ويفجرها ، يفتق ولايرتق ، ولا يكترث بالفراغ الذي قد يحدث ، نتيجة للانقضاض السريع على عناوين السياسات الثقافية الاستعمارية .

وبرز خطاب وسط الجماعة الوطنية ، متسلحا بواردات الفكر الاشتراكي، مستخدما مصطلحات وافدة ملتهبة باسم إنجاز العدالة الاجتماعية ، في بلد ليس فيه طبقات ولكن مجرد نخب تنتمي جذورها الاجتماعية لمختلف المكونات الشعبية ، وسعى هذا الخطاب لإحداث فصام مابين النخب وجذورها الاجتماعية ، في بلد يأكل الجميع فيه من قدح واحد ، لأن القلة النخبية المتعلمة لاتملك إلا أن تشرك العائلة والقبيلة في امتيازها المحدود بعطاء الدولة والوظيفة ولم تتشكل طبقة لأن أثر ى السودانيين حينها ، كان يركب كغيره إما الحمار أو الترام .

الهوية السودانية بين توحيد الثنائيات وتكثيف التدخل الدولي

وتوظيف الدين في السياسة ومحرقة الجنوب ودارفور

لم تتوقف مسيرة الإصلاح ومحاولات تجاوز السياسات الثقافية الاستعمارية ، وشيئا فشيئا تم رد الاعتبار للغة العربية حتى أصبحت لغة للمحاكم والمدارس والدولة، بعد أن كانت الإنجليزية سيدة الموقف ، على عكس ما حدث في دول الجوار ، مثل إثيوبيا

ويوغندا أو كينيا حيث تسيدت الإنجليزية، وفي إفريقيا الوسطي وتشاد حيث تسيدت الفرنسية بل إن المدرسين السودانيين عملوا على بعث أوضاع اللغة العربية ، حتى في مراكزها الأصلية في الخليج العربي والسعودية واليمن .

كما تم إبطال القوانين التي تجوز المتاجرة بالأجسام والخمور وتوحيد المحاكم والوظائف ، بحيث لا فضل لحملة مؤهلات العلوم الحديثة واللغات الحديثة على حملة مؤهلات الثقافة العربية الإسلامية إلا بالكفاءة والحاجة ومطلوبات الوظيفة .

و انشغلت النخبة الحاكمة والمعارضة ، بقضايا المقومات المعنوية للهوية المتمثلة في تجفيف منابع السياسات الثقافية الاستعمارية في مجالات اللغة والدين " التبشير المسيحي " والاجتماع وقواعد السلوك ، عن قضايا المقومات المادية للهوية ، ممثلة في قسمة السلطة والثروة وإتاحة التعليم ومكافحة المرض والجهل والأمية وإقامة مشاريع النهضة والتنمية .

واختفت ثقافة الحوار وحل محلها العنف اللفظي والبدني والخطاب الحاد وبرزت ثنائية جنوب / شمال ، واشتعلت الحرب الأهلية التي نفذت بمدد وتدخل دوليين .وأدت الحرب إلى تمكن ثقافة الكراهية وتجذر الغبينة وسط مكونات الإمبراطورية السودانية ، وفي إطار حروب السودان الأهلية ، تم استدعاء مفاهيم من النسق المعرفي الغربي وإسقاطها على القضاء السوداني .مما زاد الخلط والغموض في المطلوب في تشخيص منازعات الهوية وتعريفاتها ودلالاتها وعلاقاتها بالسلطة والثروة والتنمية والعولمة .كما تّم توظيف الدين في السياسة وتوظيف السياسات ومنازعات الهوية ضد الدين الذي هو مرتكز من مرتكزات الهوية و الانتماء للجماعة الوطنية .

وكشفت الثورة الجنوبية أن الأمن السوداني وأمن الجماعة الوطنية وأمن الهوية ، مربوط بما يجري في الجوار الإفريقي ، ومربوط بما يجري على الساحة العالمية ، من استقواء لتيار العولمة المحمول علىالدولار ور أس المال والفضائيات وسط شعارات الجندرة والحرية الجنسية والصوت العالي للشواذ ، المحمولة على مطلقات الديمقراطية وسيادة القانون وحقوق الإنسان والتداول السلمي للسلطة .

لم يتم حوار حول جدلية الهوية والحرية ومطلوبات الخبرة المحلية والهوية والخصوصية ، وكان إيقاع الحوار حول تداول السلطة وقسمة الوظائف أبطأ بكثير من

التحولات العميقة الجارية في أطراف البلاد ، في ظل الأطماع الدولية والمتغيرات الإقليمية والنزاع الإسرائيلي .

كما كان هناك إحساس عميق في هوامش البلاد وأطرافها ، بأن القيم الدستورية المكتوبة والمبادئ المشروعة ومفردات الحوار والتفاهم لم تترجم إلى سلوكيات ، وأنها ماتزال مجرد شعارات أو قيم في الإطار النظري ولم تنزل للواقع ليس فقط علىمستوى الدولة وإنما كذلك علىمستوى الأسرة والمجتمع ، وما تزال حواجز العرق واللون تعمل عملها ، وأصبحت من المحددات للتشكل الاجتماعي والسياسي وبرزت صعوبة احتضان قيم المساواة والعدالة والإخاء في مجتمع مستقطب، تسعى نخبه للتمكين والاستحواذ على السلطة والثروة ، في بلد عنت فيه الدولة والسلطة كل شيء . حيث يفتقر المجتمع الأهلي والمدني للمقومات المادية والمعنوية التي تمكنه من احتضان قيم الحوار والتسامح وكبح سلطان الدولة ، مما أطلق العنان لفكرة العنف والتمرد والخروج التي وجدت الترحيب والتأهيل من الآخر الدولي والأجنبي .

كما برز صوت الأقليات في شكل متحدات عصبية ، في محاولة لتجاوز صوت المسار العام والإطباق على الشأن العام بالمدد الدولي وتجاوز صوت الدولة المدنية ومطلوبات الديمقراطية. واتجهت الدولة في مرحلة إلى الحل الأمني والعسكري لقضايا ذات طبيعة مدنية وسياسية لاتحل فقط بمفردات القوة والعسكرة ، وإنما بالحوار والعدالة والإدارة والنمو.

وبدلا من الحوار والتسوية برزت طرائق المساومة والخصخصة التي لا تنظر للخبرة والكفاءة ، كأنما أمور السودان قسمة ثروة وسلطة على النخب شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، بينما المشروع الوطني المطلوب، قوامه التمكين المعنوي للقيم ،والأخلاق، واكتساب المعرفة في إطار العدالة ،والمرجعية الإسلامية المنفتحة المتسامحة دون إقصاء أو انغلاق . كما أن المشروع الوطني المطلوب هو تمكين التنمية ولاهوت التنمية شرقا وغربا وجنوبا وشمالا.

الهوية السودانية والتمدن :

في إطار تفاعل الهوية السودانية مع محيطها ، برزت نعرات ، قامت فكرة الهوية عندها ، على رفض حاكمية الثقافة العربية الإسلامية ومركزيتها . ووصمتها بأنها هوية الأقلية . وأن الهوية العربية / الإسلامية هي أساس التخلف والانغلاق ، وأنها لا تسمح بالتعددية الدينية واللغوية والانفتاح الحضاري ، وتم قبول هذا المنطق المسطح لأن الصراع في السودان جنوبه وأطرافه ، ليس بين الثقافات واللهجات القبلية ولكن بين الثقافة العولمية الاقصائية ومحمولاتها اللغوية والحضارية والثقافة العربية الإسلامية. فالخطر على لغة الدينكا أو لغات الاستوائيين في جنوب السودان إنما هو من اللغة الإنجليزية ومحمولاتها الحضارية وليس بالتأكيد الثقافة العربية الإسلامية ، لأن محمولات الثقافة الإسلامية وليدة البيئة السودانية هي الأقرب تفاعلا مع ثقافة الجنوب، خصوصا مفردات الهوية الناعمة من أكل وشرب وفن وغناء وزي وزواج و أسرة ممتدة، وعربية الجنوب المحلية ، التي هي لغة الخطاب المشترك بين الكل الجنوبي. والجنوبي إن خرج من العروبة العرقية إلا أنه يتداح في دائرة الحضارة الإسلامية بالموقع وتواصل الأفرو/عربية وبوجوده في الخريطة الجغرافية للعالم العربي .

ولعل النوايا غير الناضجة وتفكير الدوائر المغلقة والتفكير الداخلي وليد لحظات الانفعال والحرب ، هو الذي يؤدي للخطاب الحاد ومحاولات الفصام بين الإفرنجية والعروبة ، والمشروع العروبي الكبير، دعك من عروبة السودان ، يستند ويرتكز على إفريقيا الجغرافيا والتاريخ ، والتواصل ، والبحر الأحمر ، ولعل تعقيدات الهوية السودانية ناتجة كذلك من إحياء الذاكرة ذات الطبيعة الصراعية والانقسامية واستدعاء تاريخ الكراهية بدلا من تعزيز قيم المحبة والوحدة والإخاء .

وفي هذا الإطار يحسن التركيز على ما يجمع مثل :

- وحدة الانتماء القائمة على لاهوت المواطنة ،والعمل على حفظ الجماعة الوطنية وإعلاء الجانب الوطني، وتكثيف الحوار، وثقافة الحوار والمحبة .
- مجابهة المخاطر الوطنية ككل مشترك بجبهة تصهر المستعربين والزنج والنوبة والمسلمين ، والامتزاج الخلاق للطاقات والموارد لمجابهة العدوان لمن يريدون السودان مكسورا ومرهونا ومديناً .

- التخلل بمعنى الدعوة للمشاركة والمساهمة من الجميع في كل القضايا وشؤون الدنيا ومحاولة بلورة الخطاب المشترك في قضايا العيش المشترك والمصير الواحد .
- التكاتف الاجتماعي العابر للحواجز اللونية والعرقية والدينية بالإغاثة والنصرة والكلمة الطيبة الجميلة وتعزيز المشاركة في الحياة العامة بمعزل عن فوارق اللون والجنس والدين والثقافة والجهة .

المراجع:

1. نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان .
2. يوسف فضل حسن ، دراسات في تاريخ السودان ، المجلد الأول والثاني والثالث .
3. حسن مكي محمد أحمد ، الثقافة السنارية المغزى والمضمون .
4. ---------- ، مصطلح الأصولية .
5. ---------- ، مشاريع الحداثة والتجديد .
6. Abdullahai Ali Ibrahim and Manichaean Delirium; Decolonizating the Judiciary and Islamic Renewal in the Sudan 1898-1985,Brill,2008.
7. السودان في العهد العثماني ، من خلال وثائق الأرشيف العثماني، ترجمة صالح سعداوي ، مركز الأبحاث والتاريخ والفنون الإسلامية
8. د. محمد سعيد القدال ، تاريخ السودان الحديث ، 1930- 1955م ، مركز عبدالكريم ميرغني ، 2002م ، ص 20- 32.
9. للمزيد من الإطلاع حول هذا الموضوع ، أنظر د.ربيع محمد القمر الحاج، قراءة جديدة في نصوص معاهدة البقط وآثارها الحضارية والثقافية ، مجلة دراسات إفريقية، العدد 37، يونيو 2007م ، ص 41- 72 .
10. محجوب عمر باشري ، معالم الحركة الوطنية في السودان ، المكتبة الثقافية، بيروت 1996م .
11. تاريخ الثورة المهدية والاحتلال البريطاني للسودان ، السيد ونيستون تشرشل، ترجمة عزالدين محمود ، دار الشروق، 2006م .
12. د. مدثر عبدالرحيم ، مشكلة جنوب السودان ، طبيعتها وتطورها وآثارها السياسية البريطانية في تكوينها ، الدار السودانية للكتب 1970م .